فلاديمير بوتين وضع إكليلاً من الزهر على قبر الشاعر ليرمونتوف في الذكرى المئتين لمولده

الباحث عن السكينة والحرّية لم ينتظر من الحياة شيئاً وودّ لو ينسى ويغفو

احتفلت روسيا في الخامس عشر من الجاري بالذكرى المئتين لميلاد الشاعر والكاتب الروسي العظيم ميخائيل ليرمونتوف، ولهذه المناسبة وضع الرئيس الروسي فلاديمير بوتين إكليلاً من الزهر على قبر الشاعر، إثر قدومه بطائرة مروحية إلى موطن ليرمونتوف، عزبة «تارخاني» في محافظة بينزا الروسية، وأمضى الرئيس الروسي ساعتين في «تارخاني» حيث ولد الشاعر. وتحدثت مديرة متحف ليرمونتوف في العزبة، تامارا ميلنيكوفا (تتولى إدارة المتحف منذ 36 عاما) إلى الرئيس بوتين عن إبداع الشاعر وظروف موته المأسوي، إذ لقي مصرعه في مبارزة وكان في السادسة والعشرين من عمره. واهتم بوتين بتفاصيل خدمة ميخائيل ليرمونتوف في الجيش الروسي آنذاك، وأوضحت ميلنيكوفا أن ليرمونتوف كان ضابطاً شجاعاً، وشارك شخصياً في المعارك التي خاضها الجيش الروسي في القوقاز في القرن التاسع عشر. ثم اطلع بوتين على غرف العزبة حيث أمضى الشاعر أعوام طفولته، وتجوّل في ضواحي العزبة وبساتينها وبحيراتها وتمتّع بمناظرها الخلابة.

نبذة عن ليرمونتوف

ميخائيل ليرمونتوف شاعر روسي عظيم، عالماً أنه كتب رواية «بطل من هذا الزمان» المشهورة وعدداً من المسرحيات، وذاع صيته كشاعر رومانسي ومؤلف للقصائد الحزينة التي تقترن فيها مشاعر الاكتئاب والغربة والعزلة.

ولد ميخائيل ليرمونتوف في 3 تشرين الأول عام 1814 في موسكو، وكان يشهد منذ أيام الطفولة خلافات مستمرّة بين جدته ووالده. وتوفت أمه باكراً، ما ترك أثراً عميقاً في نفس لومنتوف الفتى وساعد في تشكيل طبيعته التي اتصفت بالحساسية المفرطة والميل الى العزلة والأحلام، وانعكس ذلك في ما بعد بأشعاره الحزينة. كتب ميخائيل الشاب عام 1830:

« وحيداً وسط صخب الناس
أموْتُ أنا تحت غطاء غريب...»

التحق ليرمونتوف الشاب عام 1828 بقسم الآداب في جامعة موسكو. لكن طبيعته الحساسة وميله الى المغامرات والمواجهات مع الأساتذة والطلاب اضطرته الى التخلي عن الدراسة في الجامعة والانتساب الى الكلية الحربية في بطرسبورغ التي تخرج منها عام 1834. واطلع ليرمونتوف خلال دراسته في الجامعة على إبداع الأدباء والشعراء والفنانين الرومانسيين الذين حازوا آنذاك شهرة كبيرة في روسيا، كما اطلع على فن نظم الشعر. ومن أشعاره الباكرة يمكن ذكر» الخريف»، «المزمار»، «ضلالات كوبيدون»، «الشاعر» «الشركس»، «الأسير القوقازي» و»القرصان»، التي كان يقلد فيها الشعراء الرومانسيين. لكن نزعته الرومانسية اقترنت غالباً بالاكتئاب والسعي الى العزلة والاغتراب عن محيطه الاجتماعي. فكتب ليرمونتوف في إحدى قصائده:

«كلّ شيء مملّ ومحزن،
وما من أحد أمدّ له يدي
في لحظات شقاء الروح المضنية...
الرغبات..! وما نفع التمنّي عبثاً إلى الأبدِ
والسنون تمضي.. أجمل كل السنين ؟!»

في كانون الثاني عام 1837 قتل أكبر الشعراء الروس ألكسندر بوشكين بمبارزة مع نجل المبعوث الهولندي الذي كان يخدم في بلاط القيصر نيقولاي الأول فكتب ليرمونتوف متأثراً بقتل بوشكين قصيدة «موت الشاعر» التي هاجم فيها العادات السائدة حينذاك في محيط القيصر، واتهم بلاطه بالتواطؤ والمساهمة في قتل الشاعر الروسي العظيم. وأصدر القيصر نيقولاي الأول مرسوماً يقضي بإرسال الملازم ليرمونتوف الى القوقاز ليشارك في الحرب مع الشراكسة.

أدهشته مناظر جبال القوقاز الخلابة، وتأثر خاصة بجمال الطريق الجورجي القديم الحافل بالأساطير والخرافات، ما ساعده لاحقاً في كتابة قصيدتيه المشهورتين «الإبليس» و«مسيري» وغيرهما من القصائد التي وصف فيها سحر جبال القوقاز وتاريخ وطبيعة شعوبه. واتسم الضابط الروسي ليرمونتوف بالشجاعة المفرطة والميل الى المغامرة. وشارك في معارك عديدة مع الشراكسة. وانعكست انطباعاته الناتجة من مشاركته في المعارك وبطولات الشعوب القوقازية في بعض قصائده المؤلفة في تلك المرحلة، ومن أشهرها قصيدة «معركة فاليريك».

في كانون الثاني 1838 عاد ليرمونتوف من المنفى وانهمك في كتابة القصائد الجديدة وبينها ملحمته « أنشودة التاجر كلاشنيكوف» وقصائد « الشاعر» و«التأمل» و«ثلاث نخلات» (أسطورة شرقية) إذ كتب:

«في الأرض العربية المغطاة
بالرمال الجرداءُ
بسقت عالياً ثلاث نخلات شمّاءْ...»

حاول الشاعر في إبداعه أن يظهر المشقات التي يواجهها الإنسان الموهوب الذي لا يقدره محيطه لاستقلاله وغطرسته. كما أعرب ليرمونتوف في قصائده تلك الفترة عن موقفه من وطنه وروحه الوطنية المتميزة وكتب:

«أحبُّ الوطن، لكن، حبّاً غريباً
لا تنتصر عليه حصافتي !
لا المجد المشترى بالدم،
لا الهدوء التام للثقة الأنوف،
ولا الأساطير المقدسة في العهود المظلمة
تحرك فيّ كل الأحلام المفرحة !»

في شباط 1840 نفي ليرمونتوف مرة أخرى الى منطقة القوقاز لمشاركته في مبارزة مع نجل السفير الفرنسي. ومن الصعب جداً ذكر جميع المبارزات التي شارك فيها. وجرت العادة في زمان ليرمونتوف أن يرد ضابط على الاتهامات موجهة إليه من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن طبيعته الحساسة المتأثرة بالعوامل الخارجية كانت تدفعه دوما الى المشاركة في المبارزات العديدة مع زملائه الضباط. وليس من قبيل المصادفة أن قدره شاء أن يقتل في إحدى المبارزات في القوقاز. وللمناسبة وصف ميخائيل ليرمونتوف على وجه التقريب مبارزته الأخيرة مع صديقه مارتينوف في روايته المشهورة «بطل من هذا الزمان». كأنه استشعر بموته الباكر في القتال أو المبارزة. وتجدر الاشارة الى أن صديقه مارتينوف الذي قتله في مبارزة وقعت في 15 تموز 1841 جُرّد من رتبة الضابط. لكنّه تمكن في نهاية المطاف من الترقي حتى رتبة لواء في الجيش القيصري.

كتب ليرمونتوف في قصيدة «وحيداً أخرج إلى الدرب»:

«أأنتظرُ شيئاً ما ؟ أأحنّ إلى شيء ما ؟!
قد أصبحتُ لا أنتظر من الحياة شيئاً
ولا الماضي أراه البتّة مؤسفاً
فأنا أبحث عن السكينة والحريّة
وأودّ أن أنسى... وأن أغفو...!».

أحمد أبو زينة: واجب التشكيليّ السوريّ الاستمرار في العمل والبقاء في الوطن

كتب محمد سمير طحّان من دمشق ـ (سانا): في لوحة التشكيلي أحمد أبو زينة الكثير من الزخم اللوني والتضاد القوي إلى جانب التوازن في التوزع على سطح اللوحة، عبر تجريد مميز ما يدخل المشاهد في حالات شعورية متناقضة محمّلة بأفكار عميقة وتفتح أمامه العديد من التساؤلات النفسية، إلى جانب المستوى البصري العالي المرتكز على الجرأة اللونية في الألوان المتفاوتة بين الحار والبارد.

تحتاج لوحة أبو زينة إلى التأمل لتفكيك رمزها ومكوناتها اللونية الخالية تقريباً من الإيحاء، فهي تقدم حواراً لونياً عميقاً يحمل ثقافة الفنان ومخزونه المعرفي والفني ويخاطب العقل والإحساس لدى المتلقي على حد سواء.

عن تجربته الفنية ونظرته إلى واقع الحركة التشكيلية السورية يقول التشكيلي أبو زينة: «أقدم عبر لوحتي مشاعري وأحاسيسي ومخزوني الثقافي والفكري وأحاول أن أوصل ذلك كله عبر أسلوبي الخاص وألواني. اللون في لوحاتي هو المحرض الرئيسي لي. واللون لديّ معقداً أحياناً، لكنه يعمل في الوقت ذاته على إثارة المشاعر لدى المشاهدين، علماً أن لوحتي تبرز اللون الصريح القوي مباشرة»، موضحاً أنه يبتعد عن فكرة الانسجام الهادئ للألوان بعضها مع بعضها الآخر، وغالباً ما يلجأ إلى حوار الألوان الصريحة على القماش مباشرة.

يؤكد أبو زينة أن نجاح تجربته الفنية يعتمد على التوازن اللوني والقدرة على خلق عمل فني ناجح، مضيفاً: «إن همي هو التوجه إلى القيم عبر التضاد اللوني بمفاهيم روحية وواقعية إنسانية ومخاطبتها بألوان ومساحات لونية تصادمية متضادة ومزوجة بواقعية تبسيطية شفافة لخلق حوار حضاري انساني عبر الشكل واللون والحالة الدرامية بينهما. إنّنا في أمسّ الحاجة اليوم إلى الملتقيات الأدبية والفنية والثقافية في هذه الفترة الحرجة التي تشهدها سورية، وهذا يستدعي إيجاد فسحة للحياة للإنسان السوري، ومن المفيد مضاعفة عدد النشاطات الثقافية».

يوضح الفنان الذي شارك في الملتقيات التشكيلية التي أقامتها وزارة الثقافة في كل من مدينتي دمشق وجبلة هذا العام أن أي مكان يملك القدرة على احتضان أي نشاط ثقافي يعتبر مكاناً مهماً، وعندما يتسم هذا المكان ببعد حضاري وتاريخي وثقافي فذلك يزيده ألقاً وتميزاً ويعطي للنشاط الثقافي زخماً، خاصة إذا كان المكان مفتوحاً أمام عامة الناس، ما يساعد في تفاعلهم مع العمل الإبداعي ومع الفنانين أثناء عملهم ويكسر الحاجز بين الناس والفعل الإبداعي الثقافي ويقربه منهم. ويعتبر أن دور الفنان السوري اليوم هو الاستمرار في العمل والبقاء في الوطن لتقديم الفن المعبر عن الحياة وقوة الإرادة.

وحول الملتقيات والأنشطة الفنية يقول أبو زينة: «إن حضور مجموعة من الفنانين التشكيليين في ملتقى فني يساعد في تعاونهم عن قرب والاطلاع على أساليبهم وتقنياتهم وطرائق عملهم، وهو فرصة للتلاقي والحوار والتفاعل. ومن خلال اطلاعه على الصحافة الفنية الغربية التي اهتمت بأعماله التي عرضت هناك وأعمال التشكيليين السوريين، ومن خلال تفاعل الجمهور الغربي مع تلك الأعمال عبر وسائل التواصل الاجتماعي، يوضح أبو زينة أن الفن لغة عالمية ولا يمكن تجاهله لأسباب سياسية أو غيرها فلو كان يتمتع بسمة الإبداع سوف يفرض وجوده على الساحة الفنية العالمية .

ويرى أن الفن التشكيلي السوري موجود على الساحة العربية بقوة رغم غياب بعض الأسماء المهمة، لكنه وضع موقت يزول مع زوال الأزمة، مؤكداً على أن للحركة التشكيلية السورية قيمتها ودورها الرائد في الفن التشكيلي العربي.

شارك أبو زينة في أبرز معارض ألمانيا الذي يعتبر من الأهم في الغرب لكونه يستمر أربعة أشهر متواصلة ويزوره أكثر من أربعمائة ألف زائر ويتقدم للمشاركة فيه سنوياً أكثر من أربعة آلاف فنان تشكيلي من أنحاء العالم ويتم اختيار مئة وثمانين فناناً فحسب، وتأتي هذه المشاركة تقديراً للوحة التشكيلية السورية عامة، بحسب تعبير أبو زينة.

يعبر أبو زينة عن تفاؤله بمستوى الفنانين التشكيليين الشباب ويقول إنه لاحظ في معرض الربيع لهذا العام مستوى مبشراً من المواهب: «أستطيع القول إن ثمة سوية فنية عالية فاقت ما قدم في معرض الخريف، وهذا يدعو إلى السعادة بوجود جيل سيطور الحركة التشكيلية السورية».

أحمد أبو زينة خريج قسم العمارة في كلية الفنون الجميلة، في جامعة دمشق، عام 1970، أقام العديد من المعارض داخل سورية وخارجها وحاز مع أربعة فنانين جائزة «بينالي الخرافي الدولي الرابع للفن المعاصر» الذي شارك فيه تسعون فناناً وفنانة تشكيلية من 17 دولة عربية.

«حكاية الأزل» فيلم وثائقيّ عن سورية الشامخة في التاريخ

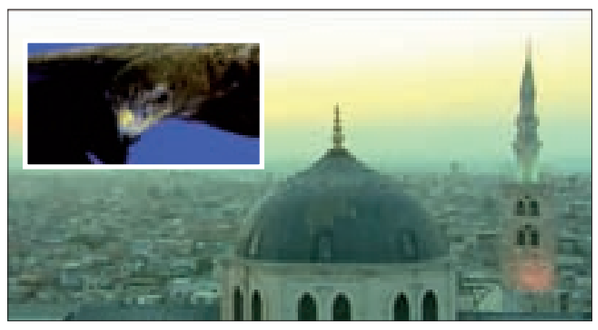

كتبت سلوى صالح من دمشق ـ (سانا): «حكاية الأزل» فيلم وثائقي يحكي قصة وطن اسمه سورية تعرّض عبر التاريخ لهجمات كثيرة، إلا أن أرضه لفظت جميع الغرباء الذين حاولوا تدنيسها، وبقيت سورية شامخة ترفض أن تموت وكانت تنهض كل مرة مجدّداً مثل طائر الفينيق، وستبقى هذه الحكاية باقية على مدى التاريخ.

يدور الحوار في الفيلم الذي أخرجه فراس قنوت بين نسرآت من الجبال وياسمينة آتية من عمق الوطن، يلتقيان على جبل قاسيون ويشكلان مملكة من الياسمين، لكن تأتي فجأة غربان مشؤومة ورياح سوداء تقتلع الأخضر واليابس ليحلّ الخراب والدمار وتختفي ضحكات الأطفال، لكن النسر يستمر في التحليق فارداً جناحيه الكبيرين فوق مساحات الوطن، بينما تستمر الياسمينة معرشة بعبقها وأريجها الفواح.

يستعرض الفيلم الذي كتبت له السيناريو وأعدته الإعلامية إلهام سلطان مشاهد من تاريخ سورية الموغل في القدم والحضارات التي تعاقبت عليها من عشتاروزنوبيا والرقم المسمارية إلى المفكرين والفلاسفة إلى المجاهد صالح العلي وسلطان باشا الأطرش وجميع الشخصيات التي عاشت على أرض هذا الوطن لتغزل قصيدة اسمها سورية لا تغيب عنها الشمس وتضع أبجدية الخلود والحب والسلام.

تقول سلطان إن الفيلم الذي عرض ضمن فعاليات مهرجان سورية الخير يوصل رسالة مفادها أن سورية أكبر من الهجمة التي تستهدفها، ومهما شوّهها الغزاة فإنها سترمم نفسها وتنهض مجدداً. ويجسد الفيلم الحب في سورية وعملية البناء المتواصلة والولادة المستمرة التي لا تقف عند أي محنة تمر بها. فسورية قادرة بمخزونها الحضاري وبشعبها القوي أن تنهض وتبدأ من جديد، وهذه هي «حكاية الأزل» التي بدأت منذ ألوف السنين الماضية وستستمر حتى ألوف مقبلة. وتتمنى سلطان أن يلقى الفيلم الذي أنتجته الهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون رواجاً وأن ينال حقه من العرض والمشاهدة على القنوات الفضائية السورية، فهو يلامس قلب وعقل كل سوري يحب وطنه ويفخر به لما فيه من لغة شاعرية إلى جانب اللغة الوثائقية العلمية. وتوضح إن مخرج الفيلم تمكن بحسه الإبداعي وفهمه العميق لمضمون الحكاية أن يوصل الفكرة بطريقة إخراجية مميزة، من خلال الاشتغال على الصورة والموسيقى والأفكار والعمق الثقافي والحضاري. كما أن انتقاء الأصوات المميزة لكل من الإعلاميين هيام الحموي وجمال الجيش لأداء سيناريو الفيلم ساهم في خدمة العمل واكتمال عناصره الإبداعية.

المخرج قنوت تحدث عن الصعوبات التي حالت دون انجاز الفيلم بالرؤية الاخراجية التي كان يريدها وتتمثل هذه الصعوبات في «الروتين الإداري والمعاملات المالية والصعوبات التقنية» وهذا ما يأمل أن يتم تلافيه في أعماله المقبلة. ولناحية التصوير يقول قنوت إنه استعان ببعض اللقطات عن طريق الإنترنت، بينما عولجت اللقطات الأخرى بواسطة الكمبيوتر، خاصة في لقطة النسر. أما مشاهد الأطفال فصوّرت عبر لقطات خارجية تعبر عن الفرح والحزن والمأساة والأمل والمستقبل، فالإنسان السوري هو في النهاية الكنز. أمّا يخص اللقطات الأثرية فهي من الأرشيف لكون سورية غنية بالحضارات.

«شباك أمينة» لأسعد اللامي... العراق في هاوية الإحباط والتمزّق والموت

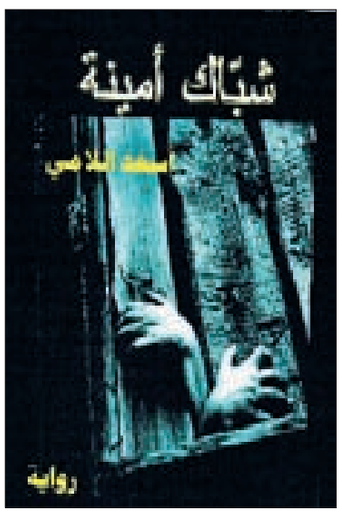

تسرد رواية «شباك أمينة» للروائي أسعد اللامي رحلة عذاب تبدأ من الحرب العراقية الإيرانية، وتنتهي بتفجير شارع المتنبي، كناية عن زوال سلطة العقل والمنطق التي تمثلها الكتب وتصبح رماداً تذروه الرياح.

في هذه الرواية تاريخ دام عاشه العراقيّون وتقطعت خلاله أوصالهم فتحوّلت إلى نفايات متناثرة، بعضهم سكن القبور، والآخر هاجر إلى الخارج، بينما عاش من استطاع الحفاظ على نفسه في هاوية بئر سحيقة مظلمة خانقة لا شيء فيها غير التخبط والمزيد من التمزق والإحباط.

يتناوب اثنان على سرد حكايات الرواية وتعميق خطابها حيال عالم الغربة والضياع والتشرذم، هما حنين وعبدالكريم قاسم اللذان تربط بينهما قرابة (أبناء خالات). حين تعود حنين من المهجر إلى العراق، بعد ثلاثين عاماً على غربتها، لعلها تجد ما فقدته من أمن واستقرار وحرية قد عادت إلى الوطن، في حين يسرد عبدالكريم قاسم متوالية العذاب التي تحمّلها مع أجيال متنوعة ممن فضلوا أو أجبروا على البقاء في وطنهم. بينما يسرد الواقع والتفجيرات في العاصمة عبر شخصيات عربية سودانية وسعودية وتونسية وسورية وعراقية، أو من خلال وجهة نظرهم يتضح فيها حجم الخراب القادم، وهو في بداياته وصولاً إلى تفجير شارع المتنبي، كناية عن اغتيال العقل وهيمنة وجهة النظر الظلامية.

تروي حنين حكاية المرأة الآشورية التي تسكن في حي كمب سارة وتُجبر مع إبنتها، بعد خطف ابنها الوحيد ثم قتله بطريقة بشعة، على ترك بيتها في بغداد والفرار إلى دمشق. ومن أهم مفارقات هذه الحكاية أن الذي اختطف ابنها ثم صفّاه، هو أحد عمال مصنع «الجكليت» الذي تملكه، وكان هذا العامل الوحيد بين العمال الذي كانت تعامله معاملة أم لابنها.

في مجال آخر يستثمر الروائي أسعد اللامي حكاية ساخرة كان الجنود العراقيون يتندرون بها إبان الحرب العراقية الإيرانية، حين أراد الرئيس أن يزرع الطاعة العمياء في رؤوسهم في إحدى زياراته الميدانية أيام الحرب، سارداً حكاية الفيل الذي يطير وفيها تتجسد طاعة الجنود العمياء للضباط الآمرين بجميع صنوفهم «إذا قال لكم آمركم إن الفيلة تطير فصدقوه». واستثمار هذه الحكاية في الرواية دليل على غياب الوعي وغياب الذاكرة المشتركة حين ترتدي الذات أقنعة الاختباء.

تبنى هذه الحكاية الساخرة على خلفية البوح الذاتي لعبدالكريم قاسم –الشخصية الرئيسة في الرواية– وهو يخاطب ابنة خالته المهاجرة حنين: «للأسف يا زهرتي قد أصدق من يأتي ويقول إن الفيلة تطير» ويعني استخدام هذه الحكاية، إضافة إلى تغييب الإنسان والاسم والهوية وارتداء الأقنعة، أن ينسى الإنسان نفسه، وأن ينسى اسمه وهويته ويصبح طيفاً لا مرئياً في حفلة تنكرية.

عبدالكريم قاسم سارد أساسيّ في رحلة إعادة سرد مكثف لترتيب حوادث الماضي المفجع، بدءاً من ثورة 14 تموز 1958 –يوم ولادته– حتى اليوم الذي فجّر فيه شارع المتنبي، كناية عن تفجير العقل العراقي، ودخوله منطقة مظلمة، وكتعبير عن شلل قوى التغيير التي نشطت منذ الثلاثينات في العراق وضعفت إمكاناتها إزاء قوى أخرى ولدت بعد التغيير، فالسارد يتعرض في الانفجار لقطع ساقه ويده، بعدما فقد إحدى ساقيه في الحرب العراقية الإيرانية، فأضحى من دون ساقين.

عندما يسرد عبدالكريم قاسم تاريخه الشخصي الذي يمثل فئة واسعة من المثقفين، يسميهم السحرة «السحرة الناجون من النار، سحرة الداخل، المتقاعدون، النافضون أيديهم عن السحر» فهو يدخل تاريخ البلاد من أوسع نكباتها: هيمنة الحروب والقتل والتهميش، وسيادة مختلف مظاهر العنف والحصار النفسي والاجتماعي على الناس، لذا يرى في سرد ذكرياته كأنه يشم رائحة البيض الفاسد، ومن أهم ذكريات الموت المجاني والنكوص والإذلال ما يسميه كريم «محفل الغابة التذكري» الذي يكرس التصديق بحكاية الفيلة تطير، حين يكون الاعتراف بالهزيمة المرة الذي لا طائل منه. يعترف ضمنياً بفشل المشروع السحري الذي تنادوا به منذ ثلاثينات القرن العشرين. وخلال تلك الفترة تكون الصفعات والإغراءات والتهديد القانون السائد الذي يؤدي إلى أن يسلّم العشرات أجنحتهم ويتحوّلوا إلى كائنات هجينة لها مشية الغراب وطيران الدجاج الخفيض. أما الباقون الذين لم يسلّموا أنفسهم فقد أصبحوا رهن القفص الكبير ومعاناة العذاب اليومية، مثل الآلاف من أمثالهم في تلك المرحلة المؤذية من تاريخ العراق الحديث.

تبدو الحياة المعاصرة لبغداد في عيون عبدالكريم قاسم وحنين على شكل نفايات تملأ الطرق، وحواجز تقطعها، وبقايا من ماضي حياة المدينة، مثل العربات التي تجرها الخيول، ومتاجر الخردة في كل مكان.

تروى الحوادث والمشاهد على لسان عبدالكريم ولسان ابنة خالته حنين بلغة شعرية تتخطى المألوف والساكن إلى أعماق النفس البشرية، في رحلة عذاب وتأمل واستشراف، في محاولة من الروائي لكسر رتابة الحياة وميلها نحو القوى الظلامية، بتلك اللغة الثرية التي تشع إنسانية وجمالاً، لكنها تراوح في حدود صورها ومجازاتها وكناياتها مكانها، ولا تستطيع أن ترتفع بالحوادث حيال تغيير مرتقب، فالحياة اتخذت مساراً منحرفاً يصعب تعديله بالكلمات والجمل الشعرية.

خسر عبدالكريم وجماعته «السحرة» رهانهم في إحداث تغيير لمصلحة الإنسان واختاروا مكاناً رومنتيكياً يطل على النهر غاية في الهدوء، بعيداً عن خاصرة العاصمة المكتظة بالزحام والضجيج. ويلخص عبدالكريم رحلته بهذه السخرية السوداء: «هل أهدرت أجمل سنوات عمري من أجل هذا الخراب؟ تحملت ما تحملت من أصناف العذاب لأجل عالم عادل، هل كنت غبياً يلهث وراء سراب؟». أسئلة ما زالت تؤرقنا جميعاً ولا إجابة لها.

في مثل هذه الأجواء يكمل السرد المبروك السوداني الجنسية الذي جاء للاقتصاص من الأميركيين الكفرة في العراق، وليثبت لامرأة تركها هناك اسمها عفاف أنه ليس رقيص عروس، يلتحق بأخيها التيجاني، ظله الذي سبقه في الذهاب إلى العراق، (...) ويقاتلان معاً جنود أميركا التي دنست أرض العراق، ويمثل المبروك رمزاً للذين ينصتون إلى أحلامهم وعواطفهم ويصدقونها على أنها الفردوس القادم، ويصل بهم التصديق إلى حدّ يضحون بأنفسهم لأجل ذلك، فهم على شاكلة غيرهم ممن تسيطر عليهم أيديولوجيا معينة حين ينصتون إلى أنفسهم وإلى من يماثلهم، لذا تكون النتيجة واحدة، ففي الأحوال كلها الفيلة لا تطير.

يبدو عالم الرواية متشظياً بين ماض تتحكم فيه عواطف شخوصه، السحرة، بهجرة معاكسة نحو الماضي البعيد، وحاضر تحكمه أصوات خفية وجبروت متسلط على شكل مجنزرات ودبابات وجنود مقنعين، لا تظهر منهم سوى أسلحتهم. تضاف إلى ذلك القوى المتخفية التي تظهر في أوقات متقاربة، وهي تعرف جيداً الطرق العامة والفرعية، كأنها سيدة الموقف، تقرر وتفعل وتؤثر في وقائع الحياة في الرواية، في حين تبدو الشخوص الأخرى مشلولة تتخبط في عالمها الروائي.

مازن شندب باحثاً في نشأة تنظيم «داعش» وإرهابه وأهدافه

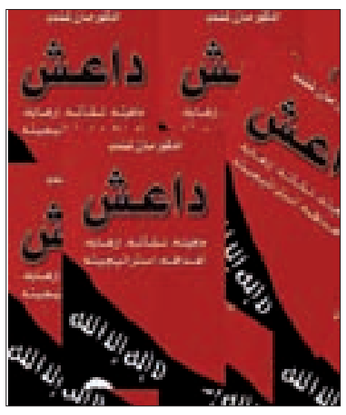

يرى الباحث اللبناني مازن شندب أن تنظيم الدولة الإسلامية «داعش» لا يمكن أن يكون مجرد صفحة تطوى كما تطوى صفحات أخرى، ويشرح شندب، الأستاذ في الجامعة اللبنانية والذي يعتبر باحثاً في قضايا الارهاب وجهة نظره هذه في كتاب صدر له حديثاً عنوانه «داعش ... ماهيته ، نشأته، إرهابه، أهدافه، استراتيجيته»، في 160 صفحة قطعاً وسطاً، لدى «الدار العربية للعلوم ناشرون» في بيروت. ويحمل الغلاف علم «الدولة الاسلامية» التي كانت تعرف قبلاً باسم «الدولة الإسلامية في العراق والشام». والكتاب في سبعة فصول ومقدمة وفصل تمهيدي وخاتمة وقائمة هوامش في ثلاث صفحات.

رغم أن الموضوع جديد نسبياً وقلة ما كتب عنه من أبحاث باستثناء الكتابات الصحافية، ، قرر شندب الخوض فيه معتمداً على ما وصفه بالروح الموضوعية قائلاً إن هذا يكفي. لكن لا بد من أن يلاحظ القارىء أن كثيراً مما ورد في الكتاب يعتبر أقرب الى الاستنتاجات الشخصية منه الى المواد الموثقة وفيه كثير من التبسيط ومن الأسئلة التي تطرح لكن من دون أجوبة أكيدة عنها.

في تقديم الكتاب يقول شندب عن هذا التنظيم: «سواء لعبت اللعبة الإعلامية لعبتها في «داعش» ومعه فظهرته على أكثر مما هو عليه وسواء انتهى «داعش» اليوم أو غداً، إلا أن ذكراه وذكريات أعماله وممارساته لا يمكن أن تشكل مجرد صفحة تنطوي كما طوي أكثر من نصف «القاعدة» بعدما طوى الأميركيون صفحة حياة زعيمها أسامة بن لادن. فمع «داعش» اتخذت السلفية الجهادية طريقاً آخر، منحرفاً أو غير منحرف، ليس مهماً، فالمهم أن تنظيم «داعش» أضحى علامة فارقة، عنفه وضع بنياناً آخر للإرهاب. والخطير في الأمر أنه بنيان يبني نهجاً آخر للإرهاب أكثر هولاً ورعباً، عندما يرث هذا التنظيم تنظيم آخر أو «خليفة» آخر الى أن يرث الله رب العالمين الأرض ومن عليها. «خطورة الارهاب تتجسد أولاً وبشكل رئيسي في فائض العنف والقتل الذي ينزله غالباً بمدنيين أبرياء يشكل استهدافهم بلاغاً وتعميماً إلى من يهمه الأمر وإلى كل مقصود من الأمر، وهي الخطورة التي لم يتفوّق عليها حتى تنظيم «القاعدة». ان قواعد اللعبة مع «داعش» مختلفة جذرياً فأنت أمام تنظيم حوّل نفسه الى دولة خلافة وهناك «خليفة» يأمر فيطاع، وبالتالي هناك استراتيجية متكاملة يسخر الإرهاب لتنفيذ بنودها من دون مناورة أو تنازل ومهما أوتيت من قوة وبطش. ومما يزيد من هذه الخطورة ويرفع من وتيرتها هو ان هذه الدولة لم تزل في طور التكوين، ما يعني أنها تعمل من أجل تصليب عودها لتتمكن وتترسخ وهي في سبيل ذلك ستصدّر القدر الأكبر من العنف المرتكز على أسس دينية وشرعية فسرتها الدولة الإسلامية وفق ما يجب إنجازه».

يتساءل شندب: «هل نحن أمام تقسيم أدوار بين «داعش» و«القاعدة» أم أن «داعش» هو فعلاً تنظيم خرج الى غير عودة من عباءة «القاعدة» فبنى لنفسه قواعد أخرى؟ هل أن تنظيم «الدولة الاسلامية في العراق والشام» هو تنظيم قائم بذاته ومستقل عن أي دولة أم لا يتجاوز أن يكون صنيعة جهاز استخبارات لإحدى الدول أو لأكثر من دولة التقت المصلحة على أن تلتقي في هذا التنظيم الإرهابي ومن بعدها سيلتقون عليه لشطبه من المعادلة بعد أن يكون أنجز الغرض المطلوب منه إنجازه؟».

في نهاية الكتاب يختتم المؤلف النتائج والاستنتاجات التي توصل إليها معتبراً أنه يمكن القول إن «الممارسات الأميركية» منذ هجمات الحادي عشر من أيلول «قد ضاعفت من قوة من يرفع لواء الجهاد كوسيلة وحيدة لردع الولايات المتحدة وثنيها عن سياساتها الإمبريالية والظالمة بحق العرب والمسلمين، وأصبح القضاء على هؤلاء أشبه بالمستحيل وذلك بسبب تمددهم وتجذرهم في المجتمعات العربية وبسبب التنظيم الدقيق الذي يصبغ هذا التمدد أو ذاك التجذر. وبالرغم من جميع المحاولات التي لجأت اليها الولايات المتحدة، وبالرغم من الصفقات التي أبرمتها مع تيار ما أسمته بالاسلام المعتدل، ليس فقط عجزت عن مكافحة هذه الجماعات وإنما أدركت أيضاً وأيقنت أن هذا التيار العريض أصبح ثابتاً وحيداً في معادلات الأخطار التي تواجهها في المشرق العربي والعالم الإسلامي وأدركت أيضاً أن تأثير هذا التيار في مشروعها في الشرق الأوسط يقتصر على العرقلة من دون أن يصل الى حدود العائق القادر على شل مشروعها شللاً نصفياً. والإخوان المسلمون العرب منهم وغير العرب صدّقوا عن قناعة أو قلة دراية لا فرق، أنهم القادرون على إخراج الولايات المتحدة من مأزق ممارساتها عندما يبادرون لإعطائها صكاً إسلامياً سنياً شرعياً وهي أيضاً مشت مع الكذبة فكانت النتيجة «داعش» و«النصرة» والله وحده يعلم من سيأتي بعدهما في المستقبلين القريب والبعيد».

يوضح شندب أن مفهوم الثورة غريب عن العرب قائلاً: «إن الإخوان المسلمين الذين ساروا في موكب التنظير الغربي الأميركي أي الثورة انتهوا كما انتهت الثورة التي نظروا لها، حالمين أنها ستتمكن من تسييدهم، غائباً عن بالهم أن ثقافتنا نحن العرب لا تتلاءم مع النظرية الغربية في الثورة، وناسين أننا نحن العرب لم تكتمل شروط نهضتنا الحداثية لابتلاع مفردات وحالات الثورة بمفهومها الغربي فابتلعتنا هي»، متطرّقاً إلى «أبرز إيجابيات أو عناصر قوة السلفية الجهادية بقالبها «الداعشي» الذي قرأ الأحداث جيداً واستفاد من خطأ الغير كل الغير، فالفشل الثوري الذريع والقاتل الذي غطاه المنظرون للثورات العربية بما أسموه المرحلة الانتقالية قفز من فوقه جهاديو الجيل الجديد عندما صدّروا مشاهد الذبح، إما أن ترضخ وتسلم فتسلم وإما أن تذبح دون خيار ثالث. «إنها ليست مجرد أفعال ذبح سادية متطرفة ناقمة وثائرة... فأنت مع «داعش» أمام لعبة قمار بكل ما للكلمة من معنى، في نهاية اللعبة إما ان تنتهي وتموت وإما ان تسود وتحكم وتقيم خلافتك...مع «داعش» أنت أمام متغير مستقل واحد وهو إقامة الدولة الإسلامية... فاليوم تقضي المصلحة أن نجعلك تشاهد فعل الذبح لكن غداً نعلمك بالذبح من دون أن نريك عملية الذبح بحد ذاتها فأنت أمام متغير تابع اسمه فعل الذبح».